الشعراء الإسلاميون

عمر ابن أبي ربيعة

(23 - 93 هـ)

نشأته وحياته

هو أبو الخطاب عمر ابن أبي ربيعة القرشي المخزومي. ولد بالمدينة ليلة مات عمر ابن الخطاب، فكان يقال، أي حق رفع، وأي باطل وضع! ثم شبل في نعمة أبيه عبد الله عامل الرسول والخلفاء الثلاثة من بعده. وكان سريا غنيا، فتقلب عمر في أعطاف النعيم، ورتع في رياض الترف، وخلا ذرعه من معالجة الأمور، ففزع للشعر وقاله وهو صغير، فما أبه له أحد من فحوله كجرير والفرزدق. ومضى وهو يروض قوافيه ويستعطف أبيه حتى ارتاض له وأسلس. فقال جرير وقد سمع رائيته التي مطلعها:

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر غداة غد أم رائح فمهجر

" ما زال هذا القرشي يهذي حتى قال الشعر ". وسلك ابن أبي ربيعة إلى الشعر طريقاً غير مألوفة ولا معروفة؛ فقصره على وصف النساء وتزاورهن ومداعبة بعضهن لبعض بلفظ رشيق وأسلوب مبتكر، فأولع به المغنون والظرفاء، وشغف به القيان والندماء، وكثر غناء الناس به وروايتهم له حتى ضج الغير والزهاد وقال ابن جريج: " ما دخل العواتق في خدورهن شيء أضر عليهم من شعر ابن أبي ربيعة " ولم يقف شره عند ذاك، وإنما كان يتعرض للحواج فيشبب بالعقائل والأميرات، ويصفهن طائفات محرمات، فزهدت كرائم الأسر في أداء هذه الفريضة خشية منه. وأولو الأمر يتغمدون هذا الجهل بالحلم رعاية لأسرته، وفخراً بشاعريته، وترقبا لتوبته. ولكن الخليفة عمر ابن عبد العزيز لم يسعه الصبر على تماديه في المجون، وإمعانه في الجهالة، فنفاه إلى دَهْلك إحدى جزر البحر الأحمر بين بلاد اليمن والحبشة، وقد كانت منفى لبني أمية، ولم يعد إلا بعد أن أقسم أنه يقلع عن صبوته، ويخلص إلى الله في توبته. ولعل بلوغه العمرين قد أعانه على البر بقسمه، فزهد وتنسك ومن الناس

من يقول إن عمر كان عفيفاً يصف ولا يقف، وبحوم لا يرد؛ ويذكرون أنه لما مرض مرضه الأخير جزع أخوه الحارث عليه جزعاً شديداً، فقال له عمر: أحسبك إنما تجزع لما تظنه بي والله ما أعلم أني ركبت فاحشة قط. فقال: ما كنت أشفق عليك إلا منم ذلك، وقد سريت عني.

شعره

لشعر ابن أبي ربيعة نوطة في القلب، وروعة في النفس، لسهولته وأناقة لفظه، وحسن وصفه، وشدة أسره، وقرب فهمه، وملاءمته لهوى النفوس في نعت الجمال ووصف المرأة. وقد ساعده نسبه ونشبه وشبابه وترفه على أن يقول في ذلك ما لم يجرؤ أحد على قوله، فسلك في الغزل مسلك القصص: يصف النساء ويحكي حديثهن ومداعبتهم ويذكر أمره معهن. فبهر الناس حتى حملهم على الإقرار لقريش بالشعر، وقد كانوا ينكرونه عليها. وبرع الشعراء حتى قال جرير: " هذا والله الذي أرادته الشعراء فأخطأته وتعللت بوصف الديار! ". على أنك لا تجد في شعره ما تجد في شعر جميل وكثير من الشعور العميق والوصف الدقيق للحب، وإنما تبع مساء يسره أن يخالطهن ويحادثهن ويتجمل لهن دون أن يفتح قلبه لواحدة منهن؛ اللهم إلا أمره مع الثريا بنت علي ابن عبد الله ابن الحارق فإنه يشبه أن يكون حباً.

نموذج من شعره

قال في قصيدة في التشبيب:

تحن إلى نعم فلا الشمل جامع ولا الحبل موصول ولا أنت مقصر

قفي فانظري أسماء هل تعرفينه أهذا المغيري الذي كان يذكر؟

أهذا الذي أطربت نعتاً فلم أكن وعيشك أنساه إلى يوم أقبر

لئن كان إياه لقد حال بعدنا عن العهد والإنسان قد يتغير!

رأت رجلاً أما إذا الشمس عارضت فيضحى وأما بالعشى فيحضر

أخا سفر جواب أرض تقاذفت به فلوات فهو أشعث أعبر

قليلا على ظهر المطية ظله ... سوى ما يقي منه الرداء المحبر
وأعجبها من عيشة ظل عرفة ... وريان ملتف الحدائق أخضر
ووال كفاها كل شيء يهمها ... فليست لشيء آخر الليل تسهر
وليلة ذي دوران جشمني الكرى ... وقد يجشم الهول المحب المغرر
وبت رقيباً للرفاق على شفا ... ولي مجلس لولا اللياقة أوعر
فقلت أباديهم فإما أفوتهم ... وإما ينال السيف ثأراً فيثأر
فلما فقدت الصوت منهم وأطفئت ... مصابيح شبت للعشاء وأنور
وغاب قمير كنت أرجو غيوبه ... وروح رعيان ونوم سمر
ونفضت عني النوم أقبلت مشية الـ ... حباب وركني خيفة القوم أزور
فَحَيَّيتُ إذ فاجَأتُها فَتَوَلَّهَت ... وكادت بمهجور التحية تجهر
وقالت وعضت بالبنان: فضحتني! ... وأنت امرؤ ميسور أمرك أعسر
أريتك أن هنا عليك ألم تخف ... رقيباً وحولي من عدوك حضر
فلما تقضى الليل إلا أقله ... وكادت توالي نجمه تتغور
أشارت لأختيها أعينا على فتى ... أتى زائراً والأمر للأمر يقدر
فأقبلتا فارتاعتا ثم قالتا: ... أقلى عليك اللوم فالخطب أيسر
يقوم فيمشي بيننا متنكراً ... فلا سرنا يفشو ولا هو يظهر
فكان مجني دون من كنت أتقي ... ثلاث شخوص: كاعبان ومعصر
فلما أجزنا ساحة الحي قلن لي: ... ألم تتق الأعداء والليل مقمر؟
وقلن أهذا دأبك الدهر سادرا ... أما تستحي أو ترعوي أو تفكر!
إذا جئت فامنح طرف عينيك غيرنا ... لكي يحسبوا أن الهوى حيث تنظر
هنيئاً لبعل العامرية نشرها ... اللذيذ وراياها الذي أتذكر

ومن قوله:

ألا ليت أني يوم تقضي منيتي لثمث الذي ما بين عينيك والفم!
وليت طهوري كان ريقك كله وليت حنوظي من مشاشك والدم
ألا ليت أم الفضل كانت قرينتي هنا أو هنا في جنة أو جهنم

وكتب إلى الثريا وهي باليمن:

كتبت إليك من بلدي كتاب موله كمد
كئيب واكف العينان بالحسرات منفرد
يؤرقه لهيب الشوق بين السحر والكبد
فيمسك قلبه بيد ويمسح عينه بيد

الأخطل[1]

(المتوفى سنة 95 هـ)

نشأته وحياته

هو أبو مالك غياث بن غوث التغلبي: نشأ بالجزيرة الفراتية في قومه بني تعلب على النصرانية كأكثر أهل هذه القبيلة. وفجع في أمه وهو صغير، فربته زوجة أبيه فأساءت تربيته. فشب سليط اللسان خبيث النية مدمناً للخمر. وبدت بواكير شعره منذ الحداثة، فهاجى كعب ابن جعيل شاعر تغلب فأخمله وهب ذكره يسير. ولما طلب يزيد ابن معاوية وهو ولي العهد من كعب ابن جعيل أن يهجو الأنصار لتعرض عبد الرحمن ابن حسان لأخته في شعره، خشى الأنصار ودله على الأخطل رجاة أن يفتكوا به، فكان ذلك سبباً في صعود نجمه وذيوع اسمه. فإنه اتصل بيزيد وهجا الأنصار فغضبوا، وشكوه إلى معاوية فحكمهم فيه، فطلبوا قطع لسانه. ولكن يزيد ترضاهم فعقوا عنه. وعرف له خلفاء بني أمية هذه اليد فقدموه وأكرموه، ولخاصة عبد الملك ابن مروان، لأنه استعان به على قبائل قيس وشعرائها لممالأتهم أعداءه من آل الزبير، فسهل عليه حجابه، ووطأ له جنابه، وأغدق عليه عطاءه، وسماه شاعر الخليفة: وبلغ من دالة الأخطل على عبد الملك أنه كان يجيئه وعليه جبة خز وفي عنقه صليب ذهب ولحيته تنفض خمراً فيدخل عليه بغير إذن. أما دخوله في المهاجاة بين جرير والفرزدق، فسببه أنه عرض بتفضيل هذا حينما سئل أيهما أشعر. فلما بلغت حكومته جريراً غضب وهجا الأخطل بأبيات منها:

يا ذا الغباوة إن بشراً قد قضى ألا تجوز حكومة النشوان

فرد عليه الأخطل في شيء من الضعف لتقدم سنه وفتور طبعه. وقد اعترف بذلك جرير في قوله لابنه: " أدركته وله ناب واحد، ولو أدركته وله نابان لأكلني " وما زال الأخطل أثيراً عند بني أمية حتى أقصاه عمر ابن عبد العزيز.

---

(1) راجع صفحة 118، 121، 122، 123، 124 .

وكان يعيش حيناً في دمشق وحيناً في بلاده الجزيرة، وتوفي في أول خلافة الوليد سنة 95 بالغاً من العمر سبعين سنة.

شعره

الأخطل أحد الثلاثة السابقين المتقدمين في هذا العصر، وهم جرير والفرزدق وهو. وقد اتفق الناس على أنهم أجود معاصريهم شعراً وأسيرهم ذكراً، ولكن اختلفوا في أيهم أشعر إخوته. والحق أن لكل منهم مزية وميزة.

فالأخطل ممتاز بإجادة المدح، ونعت الخمر، وقلة البذاء في الهجاء، وسلامة قصائده الطوال من اللفظ والسقط، ومرود طبعه على الروية والتنقيح: فقد يلبث في بعض مدائحه سنة. وربما بلغت تسعين بيتاً فيقتصر منها بعد التهذيب على الثلث. وأبت عليه طبيعته المرحة أن يقول في الرثاء؛ فلم يؤثر عنه منه إلا أربعة أبيات في رثاء يزيد ابن معاوية، وهو سبب شهرته وأصل نعمته. وكان فخوراً بنفسه، لا يرى فوقه أحداً إلا الأعشى، ولذلك كان يجري على أسلوبه.

نموذج من شعره

قال يمدح عبد الملك بن مروان:

نفسي فداء أمير المؤمنين إذا ... أبدى النواجذ يوماً عارم ذكر

الخائض الغمرة الميمون طائره ... خليفة الله يستسقى به المطر

في نبعة من قريش يعصمون بها ... ما إن يوازي بأعلى نبتها الشجر

حشد على الحق عيافو الخنا أنف ... إذا ألمت بهم مكروهة صبرا

لا يستقل ذوو الأضغان حربهم ... ولا يبين في عيدانهم خور

شمس العداوة حتى يستفاد لهم ... واوسع الناس أحلاماً إذا قدروا

هم الذين يبارون الرياح إذا ... قل الطعام على العافين أو قتروا

بني أمية نعماكم مجللة ... تمت فلا منة فيها ولا كدر

وقال يهجو الأنصار:

وإذا نسبت ابن الفريعة خلته كالجحش بين حمارة وحمار
لعن الإله من اليهود عصابة بالجزع بين صليصل وصرار
قوم إذا هدر العصير رأيتهم حمراً عيونهم من المسطار
حلوا المكارم لستم من أهلها وخذوا مساحيكم بني النجار
ذهبت قريش بالمفاخر كلها واللؤم تحت عمائم الأنصار

ومن قوله:

والناس همهم الحياة ولا أرى طول الحياة يزيد غير خبال
وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد ذخراً يكون كصالح الأعمال

الفرزدق[1]

(المتوفى سنة 110 هـ)

نشأته وحياته

هو أبو فراس همام بن غالب التميمي. كانت ولادته ونشأته بالبصرة، فدرج في عش الأدب وشب في ربوع الفصاحة. وأخذ أبوه يرويه الشعر ويعلمه القريض حتى تفتقت عنه قريحته، وانطلق به لسانه؛ فقدمه ذات يوم إلى أمير المؤمنين علي بعد واقعة الجمل مفتخراً بجودة شعره على صغره. فقال له عليه السلام أقرئه القرآن فهو خير له. فارتسمت هذه الكلمة في ذهن الفرزدق حتى كبر، فصمم على حفظ القرآن، فقيد نفسه وأقسم ألا يفك حتى يحفظه؛ وبر بيمينه. ثم اتصل بولاة المصريين فنالهم بالمدح والهجاء، وأجازوه بالإدناء والإقصاء. ومدح خلفاء الأمويين بالشام ولاسيما عبد الملك فوصلوه ولكنه لم ينفق عندهم لتشيعه لآل علي. وكان الفرزدق معاصراً لجرير وكان بينهما تنافس وتحاسد. فما كاد يحتدم الهجاء بين جرير وبين شاعر آخر اسمه البعيث حتى وقف الفرزدق في صف البعيث وآزره. فغاظ ذلك جريراً فهجا الفرزدق، ورد عليه هذا. فاستطار بينهما الهجاء عشر سنين، ففتق ذهنيهما، وأحد لسانيهما، ونمى فيهما قوة المبادهة والمجادلة، وصدق النظر. وانشعب الناس في أمرها شعبتين، تناصر كل منهما أحد الشاعرين. وجعل أحد أشياع الفرزدق أربعة آلاف درهم وفرساً لمن يغلبه على جرير، وكان الفرزدق فاجراً، فاحش النطق، خبيث الهجاء، ضعيف الدين، قاذفاً للمحصنات، يأوي إلى ركن شديد من شرف حسبه، وكرم نسبه فاستعان بكل رذائله وفضائله على جرير فما هزمه ولا أسقطه.

ثم كانت له مواقف محمودة في الذود عن آل علي تجلت فيها صراحته وشجاعته، كموقفه يوم التقى بهشام ابن عبد الملك في الحج، وسمعه يقول

---

(1) راجع صفحة 119، 124، 125، 160 .

حينما رأى علي ابن الحسين في موضع التجلة من الناس: (من هذا؟) تجاهلا لأمره، وغضا من قدره. فشق ذلك على الفرزدق، فأجابه بقصيدته التي مطلعها:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحل والحرم

فحبسه هشام ثم أطلقه بعد هجائه إياه. وتوفي الفرزدق بالبصرة سنة (110هـ) وقد شارف المائة.

شعره

كان الفرزدق فخوراً بأصله مدلا بأهله، ولوعاً بتعداد مآثر آبائه حتى أمام الخلفاء، فغلب شعره في الفخر؛ ولغة الفخر تقتضي الألفاظ الضخمة، والأساليب الفخمة، والكلم الغريب، وذكر أيام العرب وأنسابهم، واحتذاء البادين في أساليبهم. لذلك أعجب به الرواة، وفضله النحاة، وقالوا: لولا شعر الفرزدق لذهب ثلث العربية. على أنه طالما تألم من صلابة شعره؛ وتمنى أن تكون له رقة جرير لعهده، ولجرير صلابته لطهره. وفي ذلك تأييد منه لحكم الأخطل عليهما بقوله: الفرزدق ينحت من صخر، وجرير يغرف من بحر.

والفرزدق بعد ذلك في الهجاء مقذع، وفي الوصف مبدع، وفي المديح وسط، وفي الراء متخلف.

نموذج من شعره

إذا اغبرَّ آفاق السماء وكشفت بيوتاً وراء الحي نكباء حَرْجُف

وأصبح مبيض الصقيع كأنه على سروات النيب قطن مندف

ترى جارنا فيه بخير وإن جنى فلا هو مما ينطف الجار ينطف

وكنا إذا نامت كليب عن القرى إلى الضيف نمشي بالعبيط ونلحف

لنا العزة القعساء والعدد الذي عليه إذا عد الحصى يتخلف

ترى الناس لن سرنا يسيرون خلفنا وإن نحن أومأنا إلى الناس وقفوا

وإنك إذ تسعى لتدرك شأونا لأنت المعنى يا جرير المكلف

وقال أيضاً:

ومستمنح طاوى المصير كأنما ... يساوره من شدة الجوع أوْلق
دعوت بحمراء الفروع كأنها ... ذرى راية في جانب الجو تخفق
وإني سفيه النار للمبتغى القرى ... وإني حليم الكلب للضيف يطرق
إذا مت فابكيني بما أنا أهله ... فكل جميل قلت في يصدق
وكم قائل مات الفرزدق والندى! ... وقائله مات الندى والفرزدق

ومن قوله في مدح علي بن الحسين:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته ... والبيت يعرفه والحل والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلهم ... هذا التقي النقي الطاهر العلم
وليس قولك (من هذا) بضائره ... العرب تعرف من أنكرت والعجم
إذا رأته قريش قال قائلها ... إلى مكارم هذا ينتهي الكرم
يفضي حياء ويفضي من مهابته ... فما يكلم إلا حين يبتسم
يكاد يمسكه عرفان راحته ... ركن الحطيم إذا ما جاء يستلم
ينشق نور الهدى عن نور غرته ... كالشمس ينجاب عن إشراقها القتم
من معشر حبهم دين وبغضهم ... كفر وقربهم منجى ومعتصم

ومن أبياته السائرة قوله:

فيا عجباً حتى كليب تسبني ... كأن أباها نهشل أو مجاشع

وقوله:

وكنا إذا الجبار صعر خده ... ضربناه حتى تستقيم الأخادع

وقوله:

ترجى ربيع أن يجيء صغارها ... بخير وقد أعيا ربيعاً كبارها

وقوله:

قــوارص تــأتيني وتحتقرونهــا وقــد يمــلأ القطــر الإنــاء فــيفعم

وقوله:

أحلامنــا تــزن الجبــال رزانــة وتخالنــا جنــا إذا مــا نجهــل

وقوله:

تــرى كــل مظلــوم إلينــا قــراره ويهــرب منــا جهــده كــل ظــالم

جرير[1]

(المتوفى سنة110 هـ)

نشأته وحياته

هو أبو حزْزة جرير ابن عطية الخطفي التميمي. ولد باليمامة لسبعة أشهر، ونشأ بالبادية، فشب فصيح اللسان صحيح الوجدان مطبوع القريحة على الشعر. ولما آنس في نفس القدرة على قرضه، والجرأة على عرضه، ورد البصرة موطن الفرزدق ينتجع الكرماء، ويمتدح الكبراء، ويمتار أهله. فازدهاه ما أرى على الفرزدق من حلل لنعمة ومظاهر الجاه بفضل الشعر، وهو تميمي مثله، فدب في قلبه دبيب الحسد له، واشتهى أن يساويه في حسن حاله، ووفرة ماله.

فتولدت من تنافسهما وتزاحمهما أسباب المهاجاة بينهما. وأراد جرير أن يرامي قرنه عن كثب، فترك البادية واستوطن البصرة وغشى المربد[2]. ودخل في كنف الحجاج فحسن موقعه عنده، وطارت مدائحه فيه، حتى بلغت عبد الملك فنفسه على الحجاج. وأحسن الوالي رغبة الخليفة فأوفده مع ابنه محمد إلى دمشق، فلما دخل جرير على عبد الملك استأذنه فأبى، وقال له بلهجة العاتب الحنق: إنما أنت للحجاج! فما زال يتوسل إليه، ويتحمل بالناس عليه. حتى أنشده قصيدته التي مطلعها:

أتصحو أم فؤادك غير صاح عشية هم صحبك بالرواح؟

فلما وصل إلى قوله منها:

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح؟

---

(1) راجع صفحة 120، 122، 128، 129، 130، 131، 132 .

(2) المربد سوق من أسواق البصرة كانت تعرف بسوق الإبل ثم عمرها الناس واتخذوها في زمن بني أمية منتدى للشعر والخطابة، فألقت فيه حلقات المناشدة والمفاخرة، ومجالس الأدب والمذاكرة وأمها الشعراء والأشراف والرواة وطبقات شتى من الناس كل يوم للمنافرة والمحاكمة وتأريث نار الخصومة بين الشعراء، وكان لفحولهم فيها حلقات خاصة أشهرها حلقة الفرزدق والراعي.

تبسم عبد الملك وقال: كذلك نحن ومازلنا كذلك. وأجازه بمائه لقحة وثمانية رعاء؛ وأصبح جرير بعد هذه القصيدة وهمود الأخطل آثر الشعراء عند الخلفاء ولاسيما عمر ابن عبد العزيز، ولكن زلفاه لدى القصر أشعلت نار الغيرة في قلوب مناظريه، فشنوا عليه حرب الهجاء، وأرث هذه الحرب أغراض السياسة، وتحريض الفرزدق، وضيق خلق جرير، وحب الناس لمشاهد الخصومة؛ فنصب لجرير من هؤلاء الأقران ثمانون شاعراً ظهر عليهم جميعا[1] إلا الفرزدق والأخطل فإنهما نازعاه الغلبة وثبتا له. ودامت هذه المهاجاة سجالا بينهم حتى توفى الأخطل، ففرع جرير للفرزدق وكانت بينهما النقائض[2] المشهورة التي لهج بها الناس، وشغل بها الشعراء، ثم بدا للفرزدق أن يكف، فكف وتنسك حتى مات. فمضى جرير لسبيله بعده ببضعة أشهر ودفن باليمامة سنة 110هـ.

شعره

برئ جرير من خبث الأخطل وسكره، ومن جفاء الفرزدق وفجره، وتجمل بصفاء الطبع، ورقة الشعور، ونقاء الجيب، وصحة الدين، وحسن الخلق، فظهر أثر ذلك كله في شعره، فامتاز بطلاوة الأسلوب، وحلاوة الغزل، ومرارة الهجاء، وإجادة الرثاء، وحسن التصرف في جميع فنون الشعر. فكان بذلك أظهر في سماء الشعر، وأقرب إلى صفة الشاعر، وأكثر أشياعاً من الأخطل والفرزدق. فإن الأول لم يجد إلا في المدح والهجاء والخمر، والثاني لم ينبغ إلا في الفخر.

---

(1) ظفر جرير بهؤلاء جميعا بلسانه، فلا هو ذو نسب كريم يمده بالفخر. ولا ذو عترة قوية تساعده بالهيبة ن وهذا سر تفوقه وسبب تفضيله، وروى صاحب الأغاني أن رجلا قال لجرير من أشعر الناس؟ فقال له: قم حتى أعرفك من هو، ودخل به بيت أبيه عطية وقد أخذ عنزة فاعتقلها وجعل يمس ضرعها، فصاح به: أخرج يا أبت؛ فخرج شيخ دميم رث الهيئة وقد سال لبن العنزة على لحيته، فقال جرير: أتعرف من هذا الرجل؛ قال الرجل لا؛ قال هذا أبي، كان يشرب من ضرع العنز مخافة أن يسمع صوت الحلب فيطلب منه لبن. وإن أشعر الناس من فاخر بهذا الأب ثمانين شاعرا وفاز عليهم.

(2) سميت بذلك لأن أحدهما يقول القصيدة فينتقضها عليه الآخر ملتزما في ذلك ما التزمه صاحبه من الوزن والقافية.

نموذج من شعره

قال يهجو الفرزدق:

لقد ولدت أم الفرزدق مقرفاً ... فجاءت بوزَّار قصير القوادم
بوصل حبليه إذا جن ليله ... ليرقى إلى جارته بالسلالم
تدليت تزني من ثمانين قامة ... وقصرت عن باع العلى والمكارم
هو الرجس يا أهل المدينة فاحذروا ... مداخل رجس بالخبيثات عالم
لقد كان إخراج الفرزدق عنكم ... طهوراً لما بين المصلى وراقم[1]

ومن جيد قوله فيها:

تعالوا نحاكمكم وفي الحق مقنع ... إلى العز من أهل البطاح الأكارم
فإن قريش الحق لم تتبع الهوى ... ولم يرهبوا في الله لومة لائم
أذكركم بالله من ينهل القنا ... ويضرب كبش الجحفل المتراكم؟
وكنتم لنا الأتباع في كل موقف ... وريش الذُّنابى تابع للقوادم
إذا عدت الأيام أخزيت دارما ... وتخزيك يا ابن القين أيام دارم
وما زادني بعد المدى نقض مرة ... ولا رق عظمي للضروس العواجم

ومن قوله يمدح عمر بن عبد العزيز:

إنا لنرجو إذا ما الغيث أخلفنا ... من الخليفة ما نرجو من المطر
نال الخلافة إذ كانت له قدرا ... كما أتى ربه موسى على قدر
أأذكر الجهد والبلوى التي نزلت ... أم تكتفي بالذي بلغت من خبري
ما زلت بعدك في دار تعرفني ... قد طال بعدك إصعادي ومنحدري
لا ينفع الحاضر المجهود بادينا ... ولا يجود لنا باد على حضر

---

(1) راقم حصن من حصون المدينة.

كم بالمواسم من شعثاء أرملة ومن يتيم ضعيف الصوت والبصر
يدعوك دعوة ملهوف كأن به مسا من الجن أو رزأ من البشر
ممن يعدك تكفي فقد والده كالفرخ في العش لم ينهض ولم يطر

ومن أبياته التي تفرد بها قوله في الغزل:

إن العيون التي في طرفها حور قتلننا ثم لم يحيين قتلانا
يصر عن ذا اللب حتى لا حراك به وهن أضعف خلق الله إنسانا

وقوله في الفخر:

إذا غضبت عليك بنو تميم حسبت الناي كلهم غضبانا

وفي الهجاء:

تغض الطرف إنك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلابا

وفي التهكم:

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعاً أبشر بطول سلامة يا مربع؟

ومن جيد فخره قوله:

إن الذي جرم المكارم تغلبا جعل الخلافة والنبوة فينا
مضر أبي وأبو الملوك، فهل لكم يا خزر تغلب من أب كأبينا؟
هذا ابن عمي في دمشق خليفة لو شئت ساقكم إليّ قطينا

ويقال إن عبد الملك لما بلغته هذه الأبيات قال: ما زاد ابن المراغة على أن جعلني شرطياً. أما إنه لو قال: لو شاء ساقكم إلى قطيناً، لسقتهم إليه!.

الطرماح بن حكيم

(المتوفى سنة 100 هـ)

نشأته وحياته

نشأ الطرماح بن حكيم الطائي بدمشق في النصف الأخير من القرن الأول. وظل في الشام غفلا من الإغفال حتى بلغ حد الرجال فانتقل إلى الكوفة مع من وردها من جنود بني أمية، ونزل في تيم اللات ابن ثعلبة. وكان شيخ من الشراة [1] الأزارقة له سمت وهيئة، فكان يجالسه ويلابسه؛ فوقفه على عقيدته ودعاه إلى طريقته، فقبلها واعتقدها أشد اعتقاد وأصحه حتى لقى الله عليها. ثم عرفت الكميت ابن زيد الأسدي، فتساهما الوفاء، وتقاسما المحبة، وتمكنت بينهما الألفة على اختلاف ما بينهما في النسب والمذهب والبلد. فالطرماح قحطاني شامي خارجي، والكميت عدناني كوفي شيعي. وقد سأل بعض الناس الكميت عن سر هذا الاتفاق مع شدة هذا الاختلاف فأجاب: " إنما اتفقنا على بغض العامة " وهذا الجواب تصديق أو تطبيق للمثل اللاتيني القائل: " كل الشعراء أرستقراطيون [2] وعاش الطرماح عيش الشعراء على فضل الأغنياء بمدح من يعطيه ويهجو من يمنعه، وهو مع ذلك عزيز النفس، شريف الطبع، بعيد الهمة لم يقفه المال على حبه إياه مواقف الضراعة والهوان. دخل هو والكميت على مخلد ابن يزيد المهلبي، فجلس لهما ودعاهما، فتقدم الطرماح لينشد، فقال له: أنشدنا قائماً. فقال: " كلا والله: ما قدر الشعر أن أقوم له فيحط

---

(1) الشراة: الخوارج، وهم طائفة ممن كانوا مع الإمام في حرب صفين، حملوه على قبول التحكيم بينه وبين معاوية فقبله، ولكن التحكيم جرى على غير الحق فأباه؛ فخر جواعليه وقالوا له لم حكمت الرجال؟ لا حكم إلا لله، وكبار فرق الخوارج ست: الأزارقة، والنجدات، والصفرية، والعجاردة، والأباضية، والثعالبة، والباقون فروعهم، وكلهم يجمعون على البراءة من عثمان وعلي؛ ويقدمون ذلك على كل طاعة، ويكفرون أصحاب الكبائر، ويرون الخروج على الإمام إذا خالف السنة أمراً واجباً. ويزيد الأزارقة الذين ينتمي إليهم الطرماح تكفير علي وتصويب فعل ابن ملجم قاتله، وقد غلوا حتى كفروا الصحابة وسائر المسلمين، وصاحبهم هو نافع ابن الأزرق.

(2) Oal Profannm vulgus et areco

مني بمقامي وأحط منه بضراعتي، وهو عمود الفخر، وبيت الذكر لمآثر العرب" فقيل له: تنح ودع الكميت، فأنشد الكميت قائماً له بخمسين ألف درهم، فلما خرج شاطرها الطرماح وقال له: أنت أبا ضبيبة أبعد همة، وأنا ألطف حيلة.

وكان الطرماح مع اعتداده بأمره وإعظامه لقدره، معجباً بشعره فخوراً به. سمع هو وصاحبه الكميت أبياتاً من ذي الرمة، وكان معاصراً لهما، فضرب الكميت صدر الطرماح وقال: " هذا والله الديباج لا نسجي ولا نسجك الكرابيس " فقال الطرماح: " لن أقول ذلك ولو أقررت بجودته ".

وكان الطرماح رغيب العين يشره إلى المال، ويتشوف إلى الغنى ويقول:

أمُخْتَرِمِي ريب المنون ولم أنل من المال ما أعصي به وأطيع؟

فدأب في سبيله وجد في تحصيله، ودعا الله ألا يموت حتف أنفه بل يموت ميتة الجاهدين أو المجاهدين، فيكون شهيد الدنيا أو شهيد الدين.

وفي ذلك قوله:

وإني لمقتاد جوادي وقاذف به وبنفسي العام شتى المقاذف
لأكسب مالا أو أؤول إلى غنى من الله يكفيني عدات الخلائف
فيا رب إن حانت وفاتي فلا تكن على شَرْجَع[1] يُعْلى بخضر المطارف
ولكن قبري بطن نسر مقيله بجو السماء في نسور عواكف
وأمسي شهيداً ثاوياً في عصابة يصابون في فج من الأرض خائف
فوارس من شيبان ألف بينهم تقي الله نزَّالون عند التراجف
إذا فارقوا دنياهمو فارقوا الأذى وصاروا إلى ميعاد ما في المصاحف

ولكن الله لم يستجب دعاءه فمات على فرش وحمل في نعش.

(1) الشرجع: النعش.

شعره

نشأ الطرماح نشأة حضرية، فما عرف البادية ولا لابس البدو. ولكنه عاش في الكوفة وألم بالبصرة فسمع الرواة والنحاة فيهما يؤثرون الأدب الجاهلي ويقدمون الشعر البدوي، لأنه موضع الشاهد، وموطن الغريب، فولد ذلك فيه وفي الكميت حب الغريب وتكلف الحوشي؛ فكان يتسقطه من الأعراب ويتلقطه من الرجاز، ويستعمله فلا يقع به في مكانه. قال العجاج: كان الطرماح والكميت يسألانني عن الغريب فأخبرهما به ثم أراه في شعرهما وقد وضعاه في غير موضعه. فقيل له: ولم ذلك؟ فقال: لأنهما قرويان يصفان ما لم يريا. ومن ثم كان الأصمعي وأبو عبيدة يعيبان شعرهما في الإسلاميين، كما عابا شعر عدي ابن زيد وأمية ابن أبي الصلت في الجاهليين. وإنك لترى أثر هذا الميل ظاهراً في شعره، فبينما يأتيك بالأبيات الرقيقة الأنيقة العذبة، إذا به يرميك بالأبيات الغريبة البعيدة الفجة، فيشوه شعره ويكدر بحره. وقد سئل ابن الأعرابي عن ثماني عشرة مسألة من شعر الطرماح فلم يعرف منها واحدة! على أنه معدود في الفحول من الشعراء الإسلاميين، وله مذهب معروف في الهجاء يركب له المبالغة في تصغير شأن المهجوِّ وتحقير أمره فكأنما يوحي إليه. وكان الكميت وهو معاصره ومعاشره يقر له بالنبوغ في نواح كثيرة من نواحي الفضل، فقد انشد يوماً قول الطرماح:

إذا قبضت نفس الطرماح أخلقت عرى المجد واسترخى عنان القصائد

فقال: أي والله! وعنان الخطابة والرواية والفصاحة والشجاعة.

نموذج من شعره

الطرماح من أصحاب الملحمات، وملحمته تربك التفاوت بين السهل الطبيعي والوعر المتكلف، ومطلعها:

قل في شط نهروان اغتماضي ودعاني هوى العيون المراض

فتطربت للصبا ثم أوقفت رضا بالتقى وذو البر راضي

وأراني المليك رشدي وقد كنـ ت أخا عنجهية واعتراض

غير ما ريبة سوى ريق الغرة (م) ثم ارعويت بعد البياض

ومنها:

وجرى بالذي أخاف من البين (م) لعين تنوض كل مناض

صَيْدحِيُّ الضحى كأن نساه حيث تجتث رجله في أباض

سَوْفَ تُدْنِيكَ مِنْ لَمِيسٍ سَبَنْتاةٌ أَمارَتْ بالبَوْلِ ماءَ الكِراضِ

فهي قوداء أنفجت عضداها عن زحاليف صفصف ذي دحاض

ويقول في آخرها:

إننا معشر شمائلنا الصبر إذا الخوف مال بالأخفاض

نصر للذليل في ندوة الحي مراثيب للثأى المنهاض

لم يفتنا بالوتر قوم وللضيم رجال يرضون بالإغماض

فسلي الناس إن جهلت وإن شئت قضى بيننا وبينك قاضي

ومن قوله:

لقد زادني حبا لنفسي أنني بغيض إلى كل امرئ غير طائل

وأني شقي باللئام ولا ترى شقيا بهم إلا كريم الشمائل

ومن قوله يهجو بني تميم:

لو حان ورد تميم ثم قيل لها حوض الرسول عليه الأزد لم ترد

أو أنزل الله وحيا أن يعذبها إن لم تعد لقتال الأزد لم تعد

لا عز نصر امرئ أضحى له فرس على تميم يريد النصر من أحد

لو كان يخفى على الرحمن خافية من خلقه خفيت عنه بنو أسد